الفصل الثالث عشر

جهاد الفقيد عام (١٩٠٧م)

خطت الحركة الوطنية سنة (١٩٠٧م) خطوات مرفقة، وحفلت بالجهود الجبارة التي بذلها الفقيد في بث روح الوطنية في النفوس والدفاع عن حقوق مصر، وكانت هذه السنة فوزًا كبيرًا ونصرًا مبينًا للحركة الوطنية.

فيها عظم اهتمام الرأي العام في أوربا وإنجلترا بالمسألة المصرية، على إثر دعاية الفقيد العظمية، وظهر تيار من الاستنكار العام لسياسة الاحتلال في مصر، بفضل ما نشره عن فظائع دنشواي، واشتد تأييد الأمة لدعوته، وازداد إقبال القراء على اللواء؛ إذ رأوا فيه صوت الوطنية الحقة وعلمها الخفاق، وتضاعفت منزلة الفقيد في نفوس الأمة مما ظهر في الحفاوة البالغة التي قوبل بها عند عودته من أوربا في أكتوبر من تلك السنة.

وفيها أصدر الفقيد جريدتي (ليتندار إجبسيان) و(ذى إجبشيان ستاندرد) بعد أن أسس لهما شركة كانت أكبر شركة صحفية تألفت حتى ذلك الحين في مصر والشرق.

ظهور ليتندار إجبسيان وذى إجبشيان ستاندرد

اعتزم «مصطفى كامل» بعد حادثة دنشواي إصدار صحيفتين يوميتين: إحداهما بالفرنسية والأخرى بالإنجليزية للدفاع عن حقوق مصر واطلاع الرأي العام الأوربي على حقائق الشئون المصرية ورد المفتريات عن مصر. وقد تولدت عنده هذه الفكرة عقب زيارته للندن في (يولية سنة ١٩٠٦م)، فكاشف بها صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد في (فبشى) صيف هذا العام، فحبذ المشروع وشجعه على تنفيذه، وهو مشروع ضخم يستدعي همَّة كبيرة وكفاية عالية ومقدرة في الإدارة والتحرير، وقوة في المال، وقد اضطلع الفقيد بهذا العمل الكبير إلى جانب إصداره اللواء وقيادته للحركة الوطنية ومراسلته لأهم الصحف الأوربية العالمية.

وقد أسس من أجل ذلك في (نوفمبر سنة ١٩٠٦م) شركة مساهمة لإصدار الجريدتين، تألف رأس مالها من عشرين ألف جنيه، اكتتب بها المساهمون فيها، وكلهم من صفوة المصريين. وقد حنق اللورد كرومر من هذا المشروع فزعم بلسان الصحافة الإنجليزية أن الخديوي عباس الثاني هو الذي بذل المال لمصطفى كامل لإنشاء الجريدتين، فدحض الفقيد هذه المزاعم الباطلة، ونشر أسماء المساهمين ومقدار ما اكتتبوا به؛ وهم: مصطفى كامل باشا، محمد بك فريد، عمر سلطان باشا، محمود بك أنيس، علي بك فهمي كامل، محمد بك أحمد الشريف، إسماعيل بك صادق، إبراهيم بك حليم، أحمد فائق باشا، حسن حارس باشا، سيف الله يسري باشا، محمود بك أبو النصر، محمد بك سعاد، مصطفى بك رشيد، يوسف بك حافظ، محمد بك عبد اللطيف الصيدلي، إسماعيل أفندي كامل، أحمد بك حجازي، حسن محسن باشا، محمد بك خورشيد، عثمان بك أبو شنب، فؤاد بك المنشاوي، إسماعيل أفندي حافظ، خالد بك سعيد، عبد الحميد بك عمار، إبراهيم أفندي نيازي، حسن بك جمجوم، يوسف بك ذهني، قليني باشا فهمي، جلال الدين بك عارف، توفيق بك حموده، حافظ أفندي مصطفى.

واختار لتحرير الصحيفتين محررين من خيرة الكتاب الأوربيين، وذهب خصيصًا إلى أوربا يصحبه المغفور له محمد بك فريد في (ديسمبر سنة ١٩٠٦م) لاستقدام المحررين واستحضار معدات الصحيفتين، وبدأ ظهورهما في (مارس سنة ١٩٠٧م)، فكانت ليتندار إجبسيان تصدر في المساء وذى إجبشيان ستاندرد في الصباح.

ظهرت ليتندار يوم (٢ مارس سنة ١٩٠٧م)، وذى إجبشيان ستاندرد صباح اليوم التالي، وفي صدرهما مقالة للفقيد ختمها بقوله:

«ليس في جهادنا لحرية وطننا ما يخيف أحدًا من الناس، فإن التسامح والكرم من الصفات التي تفتخر بها مصر على الدوام، وإن المكان هنا لمتسع لكل العاملين ولكافة

الرجال المستقيمين النزيهين، وسيرى جميع الذين يعيشون فوق أرض مصر البديعة مقدار تمسكنا في الحال والاستقبال بمبدئنا الذي تضمنته هذه الكلمة: «أحرار في بلادنا، كرماء لضيوفنا!».

خطبتان لصاحب اللواء

وأقام المترجم بفندق الكونتننتال يوم (٢ مارس) احتفالًا لمناسبة ظهور الجريدتين جمع صفوة القوم من مصريين وأجانب، وألقى فيه خطبة بالفرنسية قال فيها:

«إن قصدنا من تأسيس هاتين الجريدتين هو إحاطة العالم المتمدن وكافة الذين يهتمون بشئون مصر علمًا بخطتنا الوطنية التي غير خصومها شكلها وقلبوا حقيقتها، فقد مثلونا في أغب الأحيان كأننا أعداء لأوربا نريد جمع كافة قوى الإسلام ضدها، وإحداث انقلاب عام؛ وأظهرونا لمن يجهلون لغتنا كأننا ننادي بالبغضاء والتعصب الديني، فنحن جئنا اليوم نكذب بصورة قطعية هذه التهم الدنيئة، ونثبت للعالم كله أن مطلبنا الوحيد -بل مطلبنا العالي السامي- هو أن نرد لمصر مكانة في العالم تليق بتاريخها ومركزها، وأن كل مجهوداتنا موجهة لهذه الغاية».

إلى أن قال:

«إننا لسنا بثوار ولا أعداء للأوربيين؛ بل إن كل ما نريده هو أن تنال مصر حريتها واستقلالها، مصر مهد المدنية والنور، ومصدر كل تقدم إنساني، إننا الوارثون لمدنيتين كبيرتين بديعتين: المدنية الفرعونية والمدنية العربية، فمن حقوقنا ومن واجباتنا أن نجلس بين الأمم المتمدنة ونطالب بحقنا في هذه المدنية».

وختم خطبته بقوله:

«إن العمل الذي نعمل له ويرمي إلى جعل مصر بلادًا كبيرة حرة كريمة، وإن الاتفاق بين المصريين والأوربيين هو من أهم مبادئنا الأساسية، فاسمحوا لي إذن أيها

السادة أن أدعوكم لأن تحيوا معي ذلك اليوم الذي لا بد من مجيئه والذي يرى فيه العالم طرًّا شروق شمس الحرية والاستقلال في مصر».

وخطب بعده المسيو «سانت أوجان» أحد محرري ليتندار، والمستر «شارل رودي» المحرر بجريدة ذى إجبشيان ستاندرد.

ثم وقف الفقيد وخطب للمرة الثانية باللغة العرية خطبة قال فيها:

«إن إصدار جريدتين بلغتين أجنبيتين في وادي النيل يعد عملًا صغيرًا أو كبيرًا في آنٍ واحدٍ، إنه أيها السادة صغير في جانب اهتمامكم به، ولكنه عظيم لأنه من الأعمال التي تقوم بها هذه الأمة في سبيل الخدمة الوطنية، وهو صغير في جانب آمالنا العظيمة وأمانينا الكبرى، وهي المطالبة بالاستقلال! (تصفيق طويل).

أيها السادة! اسمحوا لي أن أقول لكم إنكم تخجلونني بهذا التصيفق الطويل لأنني أراني أقدم شخصيًّا لهذه البلاد خدمة وطنية بهذا الاهتمام، وإني أرى نفسي في (ألف باء) من خدمة تلك الأمة العزيزة، وأرجوكم أن تطلبوا مني المزيد لا أن تصفقوا لي، فلربما عاقني هذا الاستحسان عن الاستمرار في تلك الخدمة الشريفة».

الأمل

ثم قال:

«إنَّ البلاد إذا أصابتها مصيبة انقسم أهلها إلى فريقين؛ فريق الأمل وفريق اليأس، فكونوا أيها السادة من الفريق الأول، واعلموا أنني لا أسألكم سوى أن تكونوا من هذا الفريق، أسألكم أيها السادة أن يكون لكم أمل، أسألكم أن تقولوا، إن لنا أملًا وقوة ثقة بالله، ويقينًا بالمستقبل».

الاتحاد

إلى أن قال:

«أيها الساة، لم يتطلع العالم المتمدن لأحوال هذه البلاد لم يتنبه لشئونها مثل تطلعه وتنبهه في هذه الأيام، فقد ظهرت آثار هذا الاهتمام في سائر المظاهر ولم تخف على أحد، فاعلموا أن أول واجب عليكم نحو هذا الوطن العزيز هو واجب الاتحاد؛ لأن الاتحاد قوة ليس وراءها قوة، ليترك كل وطني الحزازات والضغائن الصغيرة؛ لأن هناك شعورًا أقوى وأشرف من تلك الأمور، ألا وهو إنقاذ الوطن المصري. اعلموا أيها المصريون الأعزاء أنكم إذا أردتم أن تنالوا غايتكم وتصلوا إلى غرضكم فليس لكم إلا الاتحاد، وهو الغرس الذي ينبت ثمره قبل أن تفرغوا من زرعه. إن الله سبحانه وتعالى خلقكم لتكونوا أحرارًا سعداء، لا أرقاء تعساء، فإذا عملتم بأوامره تعالى نلتم هذه الأمنية الكبرى وفزتم بالنجاح، فكونوا كلكم أملًا، واعملوا لهذا الغرض الشريف وتلك الغاية السامية، وأنا الكفيل لكم بالوصول إلى الاستقلال المنشود لا محالة إن شاء الله».

وقد قوطعت كلمات الفقيد بالتصفيق الشديد، وبعد أن أتم خطبته دعا الحاضرين إلى تناول الشاي ولبثوا يتحادثون إلى منتصف الساعة السابعة مساء، وانتهت الحفلة في أبهى رونق من الجمال والجلال.

حفلة تكريم اللورد كرومر وخطبته (مايو سنة ١٩٠٧م)

استقال اللورد كرومر كما أسلفنا في (إبريل سنة ١٩٠٧م)، وقد قوبل نبأ استقالته من الأمة بالابتهاج العام، فجهدت الحكومة نفسها في مقابلة هذه الحركة الطبيعية بحركة معارضة لها، بإقامة حفلة تكريم له، فتألفت من أجل ذلك لجنة حكومية لإقامة هذه الحفلة، أعضاؤها وزراء الحكومة وقتئذ؛ وهم: مصطفى فهمي باشا رئيس الوزارة، وحسين فخري باشا، وسعد زغلول باشا، وأحمد مظلوم باشا، وإبراهيم فؤاد

باشا، ومحمد العباني باشا، وبعض كبار الشخصيات البريطانية، ولفيف من كبار الأعيان المصريين الموالين للاحتلال، مثل رياض باشا رئيس الوزراء الأسبق، ومحمد شواربي باشا، ومحمود سليمان باشا، والشيخ عبد الرحيم الدمرداش.

وقد أقيمت الحفلة بالأوبرا (مساء ٤ مايو ١٩٠٧م)، وخطب فيها «الكونت دي سريون» مدير شركة قناة السويس، ثم مصطفى فهمي باشا رئيس مجلس الوزراء، وقد شكر اللورد في خطبته «على خدماته لمصر»، وقال: «إن عملكم المجيد سيخلد اسمكم الكريم ويدعو مصر اليوم كما يدعوها في مستقبل الأيام إلى الاعتراف لكم بهذا الجميل». وختم كلمته بقوله: «لا غرو إذا اغتنمنا هذه الفرصة لنعرب لكم فيها عن شدة تعلقنا بكم، ولنقول إننا لا نزال نعتبركم كواحد منا».

وخطب اللورد كرومر في هذه الحفلة خطبة طويلة جارحة للكرامة الوطنية، مؤلمة للنفوس الأبية، امتدح فيها الخديوي توفيق باشا ونوبار باشا ورياض باشا، ثم مصطفى باشا، وقال عنه: «إنه خدم بلاده بطريقته المعهودة من السكينة والهدوء، والابتعاد عن التعريض لغيره والدخول فيما لا يعنيه» (يريد بذلك استسلامه المطلق لسياسة الاحتلال). وامتدح بطرس باشا غالي، ثم سعد باشا زغلول، ورمى المصريين عمومًا بنكران الجميل لأنهم لا يعترفون بفضل الاحتلال، وقال في هذا الصدد: «إن أولاد العميان يولدون عادة مبصرين» مؤملًا أن الجيل المقبل يعترف بفضل الاحتلال، وعرج على ما سماه (حقائق الحالة المصرية)، فقال: إن أولاها هي أن الاحتلال البريطاني يدوم إلى ما شاء الله، وثانيتها أنه ما دام الاحتلال باقيًا فالحكومة البريطانية تكون مسئولة عن الخطة التي تجري عليها الإدارة المصرية.

وقد قوبلت الخطبة من المصريين بالاستياء الشديد والسخط والاستنكار.

تعيين المستر «هيل» ناظرًا لمدرسة الحقوق (يولية سنة ١٩٠٧م)

وقع في تاريخ التعليم في مصر حادث هام صيف سنة (١٩٠٧م) آلم نفوس المصريين؛ ذلك أن الأستاذ «إدوارد لامبير» العالم القانوني الفرنسي كان يتولى نظارة مدرسة الحقوق الخديوية، وكان من خيرة النظار الذين تولوا إدارة المدرسة، ونال من أجل ذلك محبة الطلبة واحترام المدرسين، وبذل جهده لينهض بالمدرسة إلى المستوى اللائق بها، فوقع خلف بينه وبين المستر «دنلوب» مستشار وزارة المعارف؛ إذ وقف له بالمرصاد، وأحرجه وأساء معاملته، مما أدى إلى استقالته من منصبه، وكان الظن أن يسند هذا المنصب إلى عالم مصري، ولكن المستر «دنلوب» أملى إرادته في تعيين خلف للمسيو «لامبير»، فوقع اختيار وزارة المعارف على المستر «هيل» أحد أساتذة مدرسة الحقوق، وكانت هذه أول مرة يتقلد فيها إنجليزي هذا المنصب الكبير.

قابل الرأي العام وطلبة الحقوق هذا التبديل باستياء شديد، وكتب الطلبة المقالات العديدة احتجاجًا عليه؛ ذلك أن مستر «هيل» لم يكن على كفاية تسمح بتقليده هذا المنصب الكبير، لا سيما وقد كان حديث العهد بالحصول على شهادة الحقوق، فتعيينه لهذا المنصب الذي كان يوجد من علماء القانون الوطنيين من هو أجدر منه به، كان ضربة مصوبة إلى التعليم والكرامة الوطنية، وقد أحدث هذا التغيير ضجة كبيرة في مصر وفي فرنسا، وكتب الأستاذ «لامبير» مقاله عنه في جريدة (الطان) الباريسية الكبرى، كانت بمثابة صحيفة اتهام لسياسة الاحتلال في التعليم ولتصرفات المستر «دنلوب»، وقد أذاع فيها من الفضائح ما لم يسبق لعالم أجنبي كبير أن ينشره على الملأ بلسان قومه، وإنا ناشرون هنا هذه المقالة لأهميتها قال:

«تركت هذه الوظيفة والأسف يكاد يمزق فؤادي؛ لأن البقاء لم يعد في وسع رجل مثلي جعل حياته وقفًا على العلم، ولأني ما كنت بقادر على حفظ هذا المنصب ذي الراتب الضخم ما لم أرض بأن أكون آلة صماء لسياسة غير قويمة ومكدرة لصفاء العلاقات بين المصريين والأوربيين.

إن الموظف الإنجليزي القابض فعلًا على الإدارة الحقيقية لوزارة المعارف وهو المستر «دوجلاس دنلوب» كان قبل قدومي إلى مصر بعام قد حارب نظر مدرسة الحقوق السابق (الأستاذ جرانمولان) بثبات نادر، فغلبه على أمره وسلب منه سلطته، ثم اغتنم تلك الفرصة التي آلت فيها هذه السلطة إلى العدم، فأخذ يهيج عواطف الطلبة ويستفزها بإصداره لهم أوامر متناهية في القسوة والغلظة ولا مسوغ لها، حتى جرهم إلى الإضراب، ثم اتخذ إضرابهم ذريعة للتشفي من سلفي الذي كان حاقدًا عليه، ولم يكن حظي من المعاملة بأسعد من حظ هذا السلف؛ إذ كثيرًا ما وضعني المستشار الإنجليزي بسوء تصرفاته، ولا أدري إن كانت مقصودة منه أو غير مقصودة، في مراكز حرجة عجزت عن الخروج منها وعن توقي نتائجها؛ إذ كنت مقيدًا كل التقييد بلوائح تنزع من يدي كل سلطان حتى في المسائل الفنية الصرف التي أدخلت أيضًا في اختصاص أقلام الوزارة، وقد حارب المستر «دنلوب» تقدم التعليم الفرنسي في مدرسة الحقوق بلا تبصر؛ على حين أن تعليم الحقوق في هذه المدرسة لا يزال -ويجب أن يبقى- تعليمًا فرنسيًّا، ما دامت قوانين البلاد لم تغير تغييرًا كليًّا؛ لأنها عبارة عن ملخص لقوانيننا، ولأنه لا توجد لها شروح ومؤلفات بالعربية إلا في النادر.

وقد مثل (أي المستر دنلوب) رواية مضحكة للتعليم العالي في مدرسة الحقوق، فوقف تعيين ما يحتاج إليه القسم الفرنسي من الموظفين تتميمًا لما ينقص من عددهم المحدد قانونًا، وحجته في ذلك أن مصير هذا القسم إلى الزوال في القريب العاجل، واكتسح من القسم الأكبر وهو الذي تدرس فيه الحقوق الفرنسية باللغة الإنكليزية الأساتذة الأكفاء الذين قاموا بأمره في مبدأ تأسيسه، وهم من القضاة الذين أفادتهم إقامتهم الطويلة في الديار المصرية خبرة بأسرار قوانيننا، واستبدل بهم شبانًا من الإنكليز يعينون بمجرد تخرجهم من الكلية الإنجليزية فيقدمون إلى مصر، وهم والطلبة المكلفون بتعليمهم سواء في الجهل بالقوانين المصرية، بل إن فريقًا من هؤلاء المعلمين لم يبلغ إلى الآن في معرفة لغتنا حدًّا يستطيعون معه ترجمة المؤلفات الفرنسية التي يستعان بها على التدريس ترجمة غير مقبولة. ولقد بذلت كل جهد في سبيل ترقية شئون

المعلمين إما بتخصيصهم لتدريس فرع واحد، أو بتقليل عدد الدروس التي يكلفون بها حتى لا يصعب عليهم تحضيرها، أو توسيع مجال المباراة بينهم بترقية النجباء منهم، أو بمنع الأسباب التي تدفع المعلمين الإنجليز إلى ترك المدرسة بمجرد استفادتهم شيئًا من المبادئ القانونية يتمكنون بها من الدخول قسرًا في المحاكم الأهلية، بذلت كل سعي في هذا السبيل؛ فذهبت المساعي كلها أدراج الرياح بإزاء عناد مستر دنلوب وتعنته.

كان هذا الرجوع بالعلم إلى الوراء يقتضي التبصر والحكمة ومعاملة الطلبة بالحسنى؛ خشية أن تهيج غضبهم حالتهم السيئة وانحطاط التعليم فيهم، خصوصًا وفي مصر الآن حركة فكرية ترمي إلى طلب العلوم والعرفان، ولكن مستر «دنلوب» وضع لهؤلاء الطلبة الذين بلغوا سن الرجال نظامًا من النظامات الموضوعة لصغار تلاميذ المدارس الابتدائية، وأخذ يعاملهم بقسوة متناهية ويستعمل معهم سياسة وخز الإبر، سياسة اضطهاد دنيء؛ فكانت نتيجة ذلك أن انضم إلى الحزب المعارض للإنجليز فئة متعلمة راقية، وأن يسود على أفئدة الشبيبة الحقد والبغض للإدارة الإنجليزية، وأن تتحول مدرسة الحقوق معقلًا للوطنية المصرية بحيث لا تكاد ترى بين الأربعمائة التلميذ الموجودين بها الآن عشرة لا يؤمنون كل الإيمان بمبادئ مصطفى كامل باشا.

حاولتُ مرارًا أن ألفت نظر المستشار الإنجليزي إلى الأخطار التي تنشأ عن اتباع خطته في نظام التعليم، فلم أنل منه شيئًا اللّهم إلا بعض تجاوز وقتي عن بعض مسائل؛ ولكنه لم يخلص مطلقًا في التنازل نهائيًّا عن خطة كلها إيلام وإرغام، ولذلك كنت أتوقع دائمًا وراء عمل مستر «دنلوب» واستفزازه للخواطر من هذا القبيل أن تعصف في مدرستي عواصف جديدة أشد خطرًا من العاصفة التي عصفت بها في سنة (١٩٠٦م) وكانت تلقي علي مسئولية ذلك أمام الرأي العام المصري.

انتهى مستر دنلوب أخيرًا بالتعرض لكرامتي تعرضًا مؤلمًا؛ وذلك أنه أراد أن يجعلني بالرغم عني شريكًا له في الدسائس التي يدبرها ضد وزير وطني هو سعادة سعد زغلول باشا، ذلك الذي اختارته الوكالة الإنجليزية بفعل تأثير الرأي العام عليها والذي لم يشأ أن يكون آلة لا إرادة لها، فلكي ينزع من هذا الوزير كل سلطة ويغلبه على كل أمر، أكره رؤساء الموظفين في الوزارة على أن يتألبوا حزبًا واحدًا لعرقلة كل عمل لرئيسهم الرسمي، ولم يكن حظي من هذا الإكراه أقل من حظ زملائي، فكنت أتلقى أوامره قبل تحرير تقاريري الرسمية، ثم كان يجبرني على تقديمها له قبل إرسالها للوزير لينقح فيها ما يشاء؛ بل لقد حدث لي أحيانًا أني بعد أن حررت أوراقي وبعد أن خرجت من مكتبي وسجلت في الوزارة عدت فغيرت ونقحت منها ما يشاء المستشار، كل ذلك مما لا طاقة لي على احتماله، لم يكتف مستر دنلوب بذلك؛ بل كان يريد مني أني ما دمت راغبًا في البقاء طويلًا بجانبه يجب أن أتدنى إلى حد تضحية ضميري وتعريض نفسي في كل حين للظهور بمظهر الخائن الأثيم أمام الوزير. نتج عن هذه الأسباب التي بينتها أن علائقي مع مستر دنلوب كانت دائمًا بأكدار. على أنها توترت فجأة إثر خلاف حدث بسبب مسألة تعيين بعض المعلمين، فقد ترك ثلاثة من المعلمين في وظائفهم ووضعت لائحة جديدة للتدريس تزيد بها عدد الحصص، فاضطررت والحالة هذه أن أطلب للسنة الدراسية (١٩٠٧-١٩٠٨م) معلمين اثنين على الأقل، فبعد أن وعدني مستر دنلوب وعدًا صريحًا بإجابة طلبي عاد فنكث وعده قائلًا: إن الظروف السياسية لا تسمح باستخدام معلمين أوربيين زيادة على الموجودين، ثم هو لا يقبل بحال من الأحوال استخدام الوطنيين للتدريس في مدرسة الحقوق، إلا أني لم أذعن لهذه النتيجة وتمكنت بفضل مساعدة أحد كبار الموظفين الإنجليز من حمل مستر دنلوب على تعيين معلمين من أصل مصري في مدرسة الحقوق، ولكن بعد أن اضطررت أن أتساهل معه في مسائل كثيرة أخصها تعهدي له بإساءة الشهادة في كل مصري ينتظر أن يتقدم للتدريس بمدرسة الحقوق إجابة للدعوة التي أعلنها وزير المعارف في الجريدة الرسمية، شدد مستر

دنلوب حملته عليَّ كما شددها على سلفي، فبعد أن استنفدت كل وسائل الدفاع وأيقنت أني أصبحت عاجزًا على حماية موظفي مدرسة الحقوق وتلاميذها من مظالم مستر دنلوب استخرت الله في السفر إلى وطني، ثم حدثت بعد ذلك حادثة يستنكرها الذوق السليم، وقد أبغها إلى الجرائد بصورة لو احتملتها لضيعت كل كرامة لي عند زملائي وتلاميذتي، فلذلك أصررت على تنفيذ رغبتي في الاستقالة وقدمتها فعلًا، فقبلت بمزيد الارتياح، وفي اليوم التالي عين بدلًا عني مدرس إنكليزي لا أجد جملة تصدق عليه خيرًا من هذه الجملة التي نسبت بحق أو بغير حق إلى السير الدون جورست وهي: «إن مسرت هيل جاهل، وإنه خير لنا أن يكون كذلك ليكون أسهل قيادًا». ولقد عتب علي نفر من أبناء وطني في القاهرة وأخذوا علي تضحية مصالح فرنسا المهمة في سبيل عواطفي الذاتية، وقالوا: إني تركت وظيفة من أسمى وظائف التعليم في مصر كانت للآن محفوظة للفرنسيين؛ رغبة في الخلاص من مهمة لم ترق لي. ولست أرى رأيهم هذا في تقدير المصالح الفرنسية، فإنه كما كان من اللازم لنشر نفوذ أمتنا في الشرق أن يتولى مدرسة الحقوق الخديوية رجال أمثال «فيدال باشا وتستو» في وقت كانت أيديهم فيه مطلقة حرة يعملون ما يشاءون لنشر علومنا القضائية. كذلك لا يليق بشرف فرنسا ولا يوافق تأييد نفوذها في مصر أن يرضى علماؤها بأن يقتل مستر دنلوب روح الأخلاق ويهدم صروح العلم تحت ظلالهم».

ولقد كان لهذه المقالة المهمة، وصدورها من ذلك العالم الفرنسي الكبير، ونشرها في كبرى الجرائد الفرنسية، وتعريبها في اللواء، أثر كبير في فضح سياسة التعليم التي كان يجري عليها الاحتلال، وكان للفقيد اليد الطولى في نشر المقالة في (الطان) لنفوذه الأدبي لدى مديرها، وهو الذي قدم إليه الأستاذ «لامبير»، وبوساطته نشرتها الطان في مكان بارز من صحائفها.

كتاب المترجم إلى السير هنري كامبل بانرمان

في خريف سنة (١٩٠٧م) أرسل الفقيد كتابًا مفتوحًا إلى السير «هنري كامبل بانرمان» رئيس الوزارة البريطانية بتاريخ ١٤ سبتمبر، لمناسبة ذكرى احتلال الإنجليز القاهرة سنة (١٨٨٢م)، جاهر فيه بالاحتجاج على استمرار الاحتلال، وطالب الحكومة البريطانية بلغة رصينة متزنة بتحقيق وعودها في الجلاء، ولما كان هذا الكتاب من الوثائق المهمة في تاريخ الحركة الوطنية فإنا ننشر تعريبه؛ قال:

«يا حضرة الرئيس:

إنَّ هذا اليوم (١٤ سبتمبر) هو يوم مخلد الذكر في التاريخ سواء بالنسبة لمصر أو لإنجلترا.

فاسمحوا لي أن أ ذكركم بأنه في آن واحد تذكار مرور مائة عام على جلاء الجنود البريطانية عن مصر، ذلك الحادث الذي وقع يوم (١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧م)، والتذكار الخامس والعشرين لدخولها مدينة القاهرة الذي حصل يوم (١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢)، فلهذا التذكار شأنان. وإذا كان يذكر المصريين بمجد آبائهم الذين عرفوا كيف يدافعون عن الوطن ويجبرون إنجلترا على العدول عن غزو مصر من قرنٍ مضى، فإنه يحملهم أيضًا على التفكير في التصريحات الرسمية التي صدرت عند حصول الاحتلال الحالي لبلادهم، وفي كلمة الشرف والتعهدات التي أخذتها على نفسها بريطانيا العظمى.

إن لإنجلترا يا حضرة الرئيس في تذكار (١٤ سبتمبر) هذا من الفخار أقل مما لمصر، فإن الشعب المصري لم يجد في إنجلترا فاتحًا غزا بلاده بقوة السلاح، بل دولة صديقة أرادت مساعدة الخديوي على توطيد الأمن والنظام ووعدت علنًا بمغادرة البلاد متى توطدت أركان الأمن، ولقد مضت خمس وعشرون سنة ولم ينفذ هذا الوعد، وإن القليل من الإنجليز ليفكرون الآن في الأقسام التي فاهت بها الملكة

«فيكتوريا» والخطب التي ألقاها وزراؤها، وأكدوا فيها أن استمرار الاحتلال الإنجليزي في مصر يكون «عارًا على التاج والشرف البريطاني».

ولكننا نحن معاشر المصريين نفكر في هذه الأقسام وتلك الخطب، نفكر في ذلك العهد الذي يسمو على كل المعاهدات، وهذا العقد الذي يعلو كل العقود ورغمًا عمن يقولون: إن السياسة ليست إلا «كذبًا واحتيالًا وخداعًا» فإننا نظن أنه لا يمكن لأمة متمدنة كبيرة أن تفكر في تشويه تاريخها باختلاس لا مثيل له، ولا يمكن تعريفه لجسامته، وها هو التاريخ يقول بأعلى صوت ويبين الخطر الذي تلحقه مصر بالدول الطامعة اللواتي حاولن امتلاكها ولم تفلح واحدة منهن في استعبادها بصفة نهائية، ولكن لعل دروس التاريخ لا تكفي في نظر أنصار التوسع في الاستعمار من الإنجليز لأن تثبت أنه لا يمكن أن يملك مصر أحد سوى المصريين إلا أن يقظة الأمة المصرية من شأنها أن تظهر لهم من الآن مستقبلها القائم على الحرية والاستقلال، وأن مصر تحافظ على آمالها أكثر مما كان ذلك في أي زمان وترقب المستقبل بثقة لا يزعزعها شيء، وذلك رغمًا عن المصائب كافة، وعن جميع التدابير السياسية والمناورات الدولية؛ بل أؤكد أن المصائب قد قوت الروح الوطنية المصرية، وكل العارفين بأحوال مصر يعترفون بأن «دنشواي» أفادت في تقدم «الوطنية» أكثر من المجهودات الكبرى التي بذلها الوطنيون.

وإن المسألة المطروحة اليوم أمامكم يا حضرة الرئيس وأمام الأمة الإنكليزية هي معرفة ما إذا كانت إنجلترا تريد أن تجعل مصر صديقة أو عدوة لها، هي معرفة ما إذا كانت إنجلترا تدرك مصالحها العالية وتقدر الفوائد التي تكتسبها من الاتفاق مع أمة تزداد كل يوم عددًا وثروة وقوة فتوفى بوعدها وتحترم شرفها، أو إذا كانت تصر على العناد وتحارب كرامتها، وتجاهد ضد أمة تفيض حياة ومصرة على نيل حريتها.

وإنه إذا كانت إنجلترا قد اعتبرت الجلاء ممكنًا في عام (١٨٩٠م) وحددت هذا الميعاد في اتفاقية «درو مندوولف» لانسحاب الجنود البريطانية فكيف يمكنها أن

تدعي أن وقوع هذا الأمر الموافق للشرف ولحقوق الشعب المصري غير ممكن الآن؟ أي إنجليزي حر يستطيع أن يزعم أن ساعة الجلاء عن مصر لم تأذن بعد، في حين أن المستر «جلادستون» قد اعترف في خطابيه اللذين كتبهما لي في عام (١٨٩٦م) أن ساعة الجلاء آذنت من عدة أعوام.

يقول السير «إدوارد جراي»: إنَّه لو تركت إنجلترا مصر للمصريين لسادت الفوضى والرشوة في البلاد، وهذا التأكيد لا يفسر إلا بشيءٍ فاضح؛ وهو عدم اقتدار إنجلترا بعد احتلال دام خمسة وعشرين عامًا على القيام بمهمتها في مصر، أو القضاء على الأمة المصرية بأنها ليست أمة قادرة على حكم نفسها بنفسها وخليقة بأن تنال مكانتها بين الشعوب المتمدمة. ومن المحال أن يقبل رجل عادل مستقل الفكر هذه النظرية التي هي مسبَّة مزدوجة لإنجلترا ولمصر، وفضلًا عن ذلك فإنه لا يجهل أحد من الناس أننا نطلب لمصر حكمة دستورية حرة، وأننا لا نقبل حكم الأهواء والاستبداد أبدًا، وأن الإرادة الوحيدة التي نريد أن نخضع لها إرادة الأمة، وأن العقل لا يقبل مطلقًا أن السلطة المطلقة المتقلبة حسب الأغراض والأهواء التي يتصرف بها المعتمد البريطاني، تكون أفضل وأنفع من دستور أهلي مؤسس على المبادئ الحرة؛ إذ القول بذلك يعادل القول بأن حكومة الصين خير من حكومة إنجلترا، وإنكم قلتم يا حضرة الرئيس في إحدى خطبكم: إنه لا يمكن أبدًا أن تعوض حكومة حسنة حكومة أهلية، وأقول أنا أيضًا: إنه لا يوجد شيء في العالم ينسي الاستقلال لشعب عارف بحقوقه، وإن حكومة الأجنبي ولو كانت مثال اللطف والرقة، بخلاف ما هي في مصر، مبغوضة وممقوتة على الدوام؛ لأن سلاسل الاستعباد هي سلاسل على كل حال، سواء كانت من ذهب أو من حديد، ولا أظنني مبالغًا إذا أكدت يا حضرة الرئيس أن أفضل صديق لإنجلترا هو الذي ينصحها باحترام شرفها ووعودها، ويقول لها بكل إخلاص: إن كل ما تستطيع عمله ضد مصر لا يوقف بلادنا في طريق التقدم والحرية الذي سلكته بكل عزم، وإن أمة كأمتنا، جمعت مدة قرون عدة قوى من الصبر والهمة والإرادة لا تعرف اليأس، ولا تقف أمام أي عائق لاسترداد استقلالها،

وإن لإنجلترا الحرة أن تقرر إذا كان هذا الاستقلال سيتم بإرادتها أو ضدها، ولقد رأيت من الضروري يا حضرة الرئيس أن أذكركم في هذا اليوم المخلد الذكر بالنسبة لكم وبالنسبة لنا بوعد الحكومة البريطانية، وبما تنتظره مصر الوطنية من المستقبل.

وإننا تألمنا كثيرًا من «كذب السياسة» فلا نلجأ للمهارة والاحتيال والكذب، وإن كرامتنا وشرف قضيتنا ليحتمان علينا الصراحة والصدق والاستقامة.

وتفضلوا يا حضرة الرئيس بقبول عظيم احترامي».

باريس في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧م

مصطفى كامل

نشرت جريدة (الفيجارو) هذا الكتاب في صدر عددها المؤرخ (١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧م)، فكان بمثابة بعث جديد للمسألة المصرية؛ لأن شخصية الفقيد، وحججه الدامغة، استرعت الأنظار إلى قوة الكتاب وصاحبه، وقد تناقلته الصحف الأوربية، فنشرت خلاصته الصحف الفرنسية الكبرى كالطان والديبا والإكلير والإيكودي باريس وغيرها، وعلقت عليه باستحسان عام، ونقلت كبريات الصحف الإنجليزية كالتيمس والستاندرد والمورننج بوست والديلي نيوز خلاصته ضمن الرسائل التلغرافية الواردة إليها من مراسليها بباريس، وعلقت الديلي نيوز عليه تعليقًا مشوبًا بروح الود والتأييد، وعارضته التيمس في مقال لها، وتردد صداه في الصحف الألمانية والنمساوية والإيطالية، وكان له دوي كبير في مصر إذ جاء على إثر نجاح الفقيد في بعث قضية دنشواي في العالم، فكان حديث الناس في المجالس والصحف ووجه الحركة الوطنية وجهة الجلاء؛ أي في الطريق الذي رسمه الفقيد من قبل.

عظم منزلة الفقيد

استقباله عند عودته إلى مصر (أكتوبر سنة ١٩٠٧م)

أكبرت الأمة جهاد مصطفى كامل في أوربا سنة (١٩٠٧م) بعد جهاده عقب حادثة دنشواي سنة (١٩٠٦م)، فلم يكد يعلم الجمهور بحضوره إلى الإسكندرية ومجيئه إلى القاهرة حتى ذهبت جماهير الوطنيين جماعات ووحدانًا إلى محطة العاصمة قبيل وصوله إليها يوم (٧ أكتوبر سنة ١٩٠٧م) دون دعوة أو سابق اتفاق لاستقبال الزعيم، وأخذ إقبال جماعات المستقبلين يشتد ويتعاظم قبل قدوم القطار، حتى صار كل من شاهد هذه الجموع الزاخرة يدهش لكثرة الزحام، وكأن كلًّا منهم كان على موعد مع الآخرين؛ مع أنه لم يكن ثمة موعد ولا اتفاق. وهال موظفي المحكمة ذلك الزحام الذي لم يسبق له نظير، ووجد عمال صرف تذاكر المقابلة حيرة كبيرة في تلبية رغبات طالبي التذاكر، وقبيل قدوم القطار بلغ الزحام أشده على أرصفة المحطة، وبلغ عدد المستقبلين نيفًا وثلاثة آلاف بحيث كان هذا الجمع الزاخر يستوقف النظر لكثرة عدد المجتمعين، وحضورهم جميعًا مسوقين بشعور تكريم صاحب اللواء، دون أن يدعوهم إلى ذلك داع من لجنة أو جماعة أو أفراد، وكان معظمهم من علية القوم وصفوة الشباب، يتقدمهم المغفور له «محمد بك فريد»، وما كاد القطار يصل إلى إفريز المحطة حتى دُهش الفقيد لكثرة هذه الجموع التي جاءت لتحيته، واغرورقت عيناه بالدموع من التأثر، ولم يكد يقف القطار حتى ضجَّ الجمع بالهتاف: «ليحيى صاحب اللواء، ليحيى الرئيس، ليحيى الباشا»، وكرروا هذا الهتاف قبل وقوف القطار وبعد وقوفه، ولما تقدم أصدقاء الزعيم وأخصاؤه لتحيته تعذر الوصول إليه؛ لأنه كان محوطًا بسور من الجماهير المتلاحمة المتزاحمة، إلى حدٍّ جعل الجباه تتصبب عرقًا. وما زالت الجماهير تحيط به إلى أن وصل خارج المحطة وهناك وقف قائلًا:

مصطفى كامل
(سنة ١٩٠٧)

«إني أشكركم من صميم فؤادي على مظاهرتكم السامية، وأدعوكم لأن تقولوا «لتحيى مصر». إنكم تعرفون جميعًا أني لست إلا أضعف خادم لهذه البلاد العزيزة، وأني إنما أقوم ببعض الواجب لها، فكل تحية منكم هي موجهة لها بالذات، ولا يمكنني أن أقبلها إلا بهذه الصفة، فاسمحوا لي أن أشكركم باسم مصر شكرًا جزيلًا، وأسأل الله أن يحقق آمالي وآمالكم، وأدعوكم لأن تقولوا معي: لتحيى مصر، ليحيى الاستقلال». فرددت الجموع هذا الهتاف عاليًا، وقد وقفت حركة المحطة نحو نصف ساعة، لم يستطع فيها أحد من ركاب القطار على ما فيه من الكبراء والعظماء أن يبرح مكانه، حتى انصرفت تلك الجموع، وكان هذا الاستقبال هو الأول من نوعه في الاستقبالات الوطنية الرائعة؛ إذ لم يسبق أن قوبل زعيم في عهد الاحتلال بمثل هذه

المظاهرة الكبرى، وبخاصة لأنها حصلت من غير سابق اتفاق أو دعوة أو دعاية أو توريط؛ بل كانت وحي الشعور الوطني الصادق الذي انطبع في نفوس المصريين؛ تقديرًا لجهاد الفقيد وتشبعًا بروحه الوطنية.